عتبة 2

لم أكن في الحسبان.

إذا تأمّلت حياةً من بعيد، بدا كلّ شيء ذا معنى.

النقاط تترابط.

الأحداث تجد تفسيرًا.

المنعطفات تبدو حتمية.

حتى الأخطاء تبدو جزءًا من تدبير.

لكن هذا وهمٌ ينتمي إلى الحاضر.

حين تعيش الأشياء، لا وجود لأيّ خريطة.

لا وجود إلا للأيام.

وفي الأيام لا توجد تفسيرات.

توجد قرارات.

حين كنت شابًّا ظننت أنّ الكبار يعرفون ما يفعلون.

ظننت أنّ المعلّمين يعرفون مستقبل التلاميذ.

ظننت أنّ الشركات تعرف كيف تميّز إمكانات الناس.

ظننت أنّ للعالم نظامًا.

ثم اكتشفت حقيقة أبسط بكثير.

لا أحد يعلم حقًّا ما سيحدث.

الجميع يُبحرون.

بعضهم يعترف بذلك.

وبعضهم يتظاهر بغير ذلك.

حين أنظر إلى حياتي، لا أستطيع تحديد لحظة قال فيها أحدهم:

«هذا الشخص سيبلغ شأوًا بعيدًا.»

لم يكن أحد ينتظرني.

لم يكن هناك ممرّ مفضَّل.

لم يكن هناك تدبير مُعَدّ سلفًا.

لم أكن المفضَّل عند أحد.

والحقّ أنّ هذا الاكتشاف حرّرني.

لأنه حين لا ينتظرك أحد، تكفّ عن العيش لتأكيد توقّعات الآخرين.

تبدأ ببناء مسارك.

خطوة خطوة.

كثيرون يقضون العمر محاولين أن يكونوا على قدر الصورة التي بناها الآخرون لهم.

أنا كان لي امتياز مختلف.

تلك الصورة لم تكن موجودة.

لهذا تعلّمت مبكرًا أن أتعايش مع اللايقين.

ألّا أفزع حين تتغيّر الأشياء.

ألّا أعتبر التغيير تهديدًا.

ألّا أعامل المسارات غير المألوفة كأخطاء.

الحياة لم تهتمّ يومًا باتّباع برامجي.

ومع الوقت، تعلّمت ألّا أطالبها بذلك.

كانت هناك لحظات بدا فيها كلّ شيء سائرًا في الاتجاه الصحيح.

ولحظات بدا فيها أنّ العكس تمامًا هو ما يحدث.

أشخاص بدوا لا غنى عنهم ثم اختفوا.

فرص بدت حاسمة ثم تبيّن أنها بلا أهمية.

طرق بدت ثانوية ثم صارت مركزية.

لقاءات عابرة غيّرت مجرى السنوات التالية.

الحقيقة أنّ المستقبل يحبّ المفاجأة.

لا يستأذن.

لا يرسل إشعارات مسبقة.

لا يحترم التراتبيات.

يصل وكفى.

وغالبًا يصل من حيث لا ينظر أحد.

كثير من الأشياء التي حدّدت وجودي وُلدت هكذا.

من انحرافات عن الطريق.

من حوادث.

من وقائع لم يكن لها، لحظة وقوعها، أيّ مظهر من مظاهر العظمة.

أذكر درسًا علّمنيه الزمن بشيء من القسوة.

لا ينبغي الخلط بين القابلية للتوقّع والقيمة.

ما يمكن توقّعه يبعث على الطمأنينة.

وما له قيمة يُحدث التحوّل.

والاثنان نادرًا ما يلتقيان.

لسنوات عملت وأنا أراقب أسواقًا وشركات وأرقامًا ومؤسسات.

وفي كلّ مكان كنت أجد القناعة نفسها.

أنّ توقّع كلّ شيء ممكن.

أنّ الواقع قابل للضبط.

أنّ المستقبل خطّ يمكن رسمه.

ثم كان يأتي دائمًا شيء يكذّب ذلك اليقين.

تغيير.

أزمة.

شخص.

مرض.

خسارة.

فرصة.

شيء لم يُدرجه أحد في الخطة.

ومع ذلك، هناك بالضبط كان يبدأ الجزء الأكثر إثارة من الحكاية.

لأنّ الحياة لا تقيس القدرة على التوقّع.

تقيس القدرة على التكيّف.

هذا الفرق جوهري.

التوقّع تمرين للذكاء.

والتكيّف تمرين للهوية.

حين يتغيّر العالم، لا ينتصر من كان على حقّ.

ينتصر من يستطيع أن يبقى حيًّا داخل التغيير.

أحيانًا أتساءل ماذا كان سيحدث لو أخبرني أحدهم بدقّة كيف سيجري مساري.

ربما كنت سأخاف أقلّ.

ربما كنت سأرتكب أخطاء أقلّ.

ربما كنت سأتألّم أقلّ.

لكنني أدرك حينها أنني كنت سأتعلّم أقلّ بكثير.

لأنّ معظم الأشياء التي أعتبرها مهمّة لم تولد من اليقين.

وُلدت من الشكّ.

من المخاطرة.

من غياب الضمانات.

من ضرورة المضيّ دون أن أعرف بالضبط إلى أين أنا ذاهب.

بهذا المعنى، كان عدم وجودي في الحسبان امتيازًا.

أجبرني على البناء.

على الملاحظة.

على التعلّم.

على التغيّر.

على البدء من جديد.

في كلّ مرة.

مرّة بعد مرّة.

اليوم كثيرون يلاحقون الاستحسان.

ينتظرون التصاريح.

يبحثون عن تأكيدات.

يريدون أن يعرفوا سلفًا إن كانوا سيُقبَلون.

إن كانوا سيُعترَف بهم.

إن كانوا سيُفهَمون.

أنا لا أستطيع تقديم وصفة.

أستطيع فقط أن أروي ما تعلّمته.

في معظم الحالات، العالم لا يعلم أنك موجود.

لا ينتظرك.

لا يُعِدّ لك طريقًا.

لا ينظّم حفل استقبال.

وربما هذا حسن.

لأنّ قيمة مسارٍ ما لا تتوقّف على من توقّعه.

تتوقّف على من امتلك الشجاعة ليعبره.

أنا لم أكن في الحسبان.

لم أكن منتظَرًا.

لم أكن مبرمَجًا.

ومع ذلك ها أنا هنا.

أنظر إلى الوراء.

أربط النقاط.

أبتسم أمام سخرية الزمن.

لأنّ الحكايات الأكثر إثارة، في النهاية، ليست تلك المكتوبة سلفًا.

بل تلك التي تجد وحدها طريقها إلى الوجود.

وحكايتي، في الخير والشرّ، تنتمي إلى هذه الفئة.